# نحو رؤية فى التعامل مع الشعر الحائر

للأستاذ الدكتور / فتحى محمد أبو عيسى
عميد الكلية

ما يزال تاريخ الفكر الأدبى والنقدى عندنا ـ على الرغم من الجهود التى بذلت والتى تبذل فى ساحته ـ فى حاجة لتجلية بعض أبعاده ، وتنحية ما لعله يكون قد اكتاد طريقها من تعتيم أو ضبابية وغموض ..

وقد يكون مرد ذلك الى تهيب الكثير الكاثر من الدارسين من الخوض فى قضايا التراث أو حسمها ، فقل أن تجد على تعاقب الأجيال من يتجرد لمطارحة هذه القضايا الشائكة ممن وهب المغامرة والجسارة فى دنيا البحث ،وعجيب أن يصبح التلاحم ببعض جنبات التراث أو الاقتراب منها محفوفا بالتوجس ، مشوبا بالحذر والاحجام خصوصا اذا كان التناول متسما بالمنزع الجرىء فى النقد والمعالجة ، وكان رواتنا وعلماءنا ومؤرخينا ونقادنا أولئك الذين تتردد أسماؤهم فى مظان التراث باتوا من الحصانة بحيث أصبح المساس بهم ردة فكرية ، أو تمردا يصم صاحبه بالضلالة والغواية ..

ولست أود المجازفة ـ فى هذا المعرض ـ فاعلن أن ما أصاب تراثنا من ضرر الجمود كان خطره بالغا للغاية ، ولم يقتصر ذلك على آفاق التراث الأدبى والنقدى فحسب ، بل سرى صداه الى التراث الاسلامى بالرؤى التى تشكله والفكر الذى يصوغ نبضه ..

وهاك ما ذكره الدكتور « شكرى عياد » حول ذلك المعنى ، يقول :

« ومن المؤسف أن الكتابين اللذين وصلا الينا فى تاريخ القران ،

وهما «البرهان» للزركشى ( القرن الثامن الهجرى )و«الاتقان» للسيوطى ( القرن التاسع ) ، وأهم ما يعنينا منهما حشد الروايات بدون تمحيص ، وماذا عسى أن يظن المسلم اذا قرأ هذا الخبر مثلا فى «الاتقان» ؟!!

قال أبو عبيدة ـ حدثنا اسماعيل بن ابراهيم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : ليقولن احدكم قد أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير ، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر .

وقال : حدثنا ابن أبى مريم من ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة ابن الزبير عن عائشة قالت :

كانت سورة « الأحزاب » تقرأ فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم مائتى آية ، فلما كتب «عثمان ، المصاحف لم تقدر منها الا ماهو الآن »

بل ماذا يظن المسلم أو غير المسلم وهو يقرأ مثل هذه الأخبار منسوبة الى عدد من جلة الصحابة ، وناهيك عن « عائشة » و « عبد الله ابن عمر » .

ويخلص د. شكرى عياد الى قوله :

والحقيقة أن الخوف من اعمال العقل فيما حوته الكتب ـ ولا سيما الكتب الدينية ـ حتى ولو كان مؤلفوها من المتأخرين الذين عرف عنهم ميلهم الى الافراط فى النقل سمة لا تزال تعيب ثقافتنا رغم الجهود التى بذلها المجددون منذ عدة أجيال ، ولا يقتصر ضررها على شيوع كثير من الأضاليل والخرافات ، بل أنها تعوقنا ـ أيضا ـ عن الانفتاح بما هو رائع وعظيم حقا فى تراثنا ـ ولا نستثنى منه تراث العصور المتأخرة جميعه ، فالعين التى تحجب عن النظر لا يمكنها أن تميز الغث عن السمين (١) :

---

(١) مجلة «الهلال» فبراير ٩١ صفحة ٥٤ وما يليها .

وفى مطاوى هذا الكلام ما يشير بأصابع الاتهام الى التقصير الذى يتردد فيه كثير من الدارسين المواقف التى يملؤها التقصير ، ويضاعف التبعة الملقاة على عاتقنا نحن المشتغلين بصناعة الكلمـــة فى الميادين المتعددة التى تتصل بالتراث اتصالا حميما ، فوق أن التوانى عن كل ما يحقق الغاية المبتغاة منها مسئولية نتحمل أوزارها بين يـدى الله عز وجل ..

ولئن كان المقال الذى نحن بصدده ـ الآن ـ يتمحض لتاريخ الفكر الأدبى والنقدى ان الذى ينبغى أن يكون واردا أن هذا التاريخ على تراحبه وانديا‌حه شهد ألوانا من اللبس ، وأنماطا من التخليط ، يعيش الباحث ـ ازاءها ـ مشدوها ، وأنى له توخى الحقيقة أو تحريرها وسط هذا التراكم وهو مستيقن ـ سلفا ـ بأن فكره قد يلقى من الاضطهاد والعنت ما لا قبل له به ، فخير من هذا كله أن يتحول الى بدائة مسلمة ، أو كلام مكرور يمضغه ويلوكه ..

على أن حسم القضايا الأدبية والنقدية أمر بعيد المنال ، لاسـيما ومشارب المتأدبين مختلفة ، وأذواق الشداة متباينة،وتتعقدالقضية وتغيم ملامحها حين يرتبط البحث بقصيدة حائرة ، يتنازعها غير شـــاعر ، فلا جدال فى أن ذلك يكلف الباحث رهقا من أمره ، اذ محـــاولة نسبة قصيدة ـ على تلك المثابة ـ الى صاحبها ولو ترجيحا عمل عصى تكتنفه العقاب ، ولعل المنطق فى هذه المحاولة أن يصدر الباحث أولا فى عمله عن عمق فى الرؤية ، وخبرة طويلة فى التعامل مع النص التائـه ، واستثمار ملكات « النقد الداخلى » وأدواته فى استبطان ما ينطوى عليه من توجه ، ومثل هذا النقد الداخلى محكوم باللمـــح والاستشفاف ، واستيحاء ما لدى الشعراء الذين يدور النص فى فلكهم .. فكـل تلك الامارات والمقومات متى سرت فى القصيدة الرجراجة سريان الكهرباء فى أسلاكها بددت ظلمة ، وقشعت قتامة حول القصيدة ، وآنـذاك يمكن فى

الأغلب نسبة القصيدة الى صاحبها .. وتلك فى ذاتها منقبة كريمة ، وخدمة جليلة ، يتقاضانا واجب الذود عن التراث وحياطته أن نحرز شرفها ، ونحظى بالسبق اليها فى دأب جاهد ، وعمل موصول ..

تفجرت هذه المعانى فى مسارب النفس من قصيدة حائرة ، تحدث عنها « كارل بروكلمان » فى أثناء تعريفه بالشاعر « على بن جبلة » الملقب بالعكوك ، وذلك حيث جاءت عنه عبارة وامضة فى الترجمة له :

« وله قصيدة تسمى اليتيمة » فى وصف جمال الجسم .... وانظر ترجمة « أبى الشيص » فيما بعد (٢)

حتى اذا مضى يتحدث عن ( أبى الشيص ) - بعدئذ - قال :

« ولأبى الشيص قصيدة تسمى الدرة اليتيمة ، نسبها بعض الرواة أيضا الى العكوك » على بن جبلة » (٣)

ولم يزد ..

وكان لا مناص من الانعطافة الى دواوين الشعر ، أو كتب المجموعات الشعرية ، ثم استشارة كتب التاريخ الأدبى أملا فى أن ألقف خيطا يهدينى سواء السبيل .. بيد أن كتب التاريخ الأدبى لجماعة من الضالعين أمسكت عن الكلام بل حتى عن الاشارة الى شىء من ذلك ، مع أن كتابة التاريخ الأدبى لشاعر ما تستدعى هذا الحضور ، ثم تكل - وهذا هو الأمثل - التفاصيل الى النقاد ...

وبرقت خاطرة أخرى عولت على الدواوين الشعرية المحققة ، فمن

---

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/٣٧ ترجمة د. عبد الحليم النجار - الطبعة الثالثة - دار المعارف .

(٣) السابق ٢/٦٩

المؤكد ألا يغفل التحقيق العلمى لفتة الى بعض القصائد المتنازعة على الأقل ، ولكن هذه الخاطرة ذهبت بددا حيث لم أقع الا على العبارة التقليدية التى تكتب - عادة - بين يدى هذه القصيدة الحائرة ومثيلاتها ، وهى العبارة التى تتمثل فى الآتى :

« وله وينسب الى غيره قصيدة كذا »

ومن الطبعى أن التحقيق العلمى فى مقدمة الديوان المحقق ما لم يتصد لبحث القصائد الجهيرة ، أو على أضعف الايمان ما لم ينبه القارىء الى ملابسات ذلك الشعر التائه كان التحقيق مبتورا ، وكانت منهجيته مدعاة الى الدهشة ، ومثارا للتساؤل ...

وهذا يعنى أن جانبا من تراثنا - والحال كذلك - سيظل مقضيا عليه بالانزواء ، والاستسلام الى الركون القاتل واليأس المرير ، ويبقى السؤال قائما : من لهذا التراث والى متى يحجب القه غبار الماضى المتراكم ؟

وآن لى - بعد الذى قدمت - أن أعرض « اليتيمة » تلك القصيدة الحائرة ، عسى أن أصيب شاكلة الحق فى رسم بعض الملامح التى يمكن أن تشكل رؤية تيسر السبيل الى اقتحام لحومة تلك القصائد التائهة التى توزعت على دواوين الشعر القديم من خلال القصيدة :

١ - هل بالطلول لسائل رد  أم هل لها بتكلم عهد (١)

---

* يمكنك مطالعة القصيدة كاملة فى شعر على بن جبلة الملقب بالعكوك ١١٥ - ١١٩ - دار المعارف .

وانظر اشعار أبى الشيص الخزاعى جمع وتحقيق عبد الله الجبورى ٤٢ - ٥١ - النجف الأشرف .

(١) الطلول : جمع طلل : ما شخص من آثار الديار - والعهد : المعرفة .

٢ ـ درس الجديد جديدمعهدها فكأنما هى ريطة جرد (٢)

٣ ـ من طول مايبكى الغمام على عرصاتها ويقهقه الرعد (٣)

٤ ـ وتلث سارية وغادية ويكر نحس خلفه سعد (٤)

٥ ـ تلقى شآمية يمانية لهما بمور ترابها سرد (٥)

٦ ـ فكست بواطنها ظواهرها نورا كأن زهاء برد (٦)

٧ ـ يغدو فيسرى نسجه حدب واهى العرى ونثيره عقد (٧)

٨ ـ فوقفت أسألها وليس بها الا المها ونقانق ربد (٨)

---

(٢) درس : عفا وخفيت آثاره من باب (قعد) ـ والمعهد : المنزل المعهود ، والريطة : كل ملاءة غير ذات لفقين ، والجرد : البلى وهو وصف بالمصدر .

(٣) العرصات ـ واحدة : عرصة : ساحة الدار ليس بها بناء .

(٤) تلث ـ من قولهم : ألث بالمكان : أقام به ، ومنه قول «الأعشى» فى هجاء « علقمة بن علاثة » ومدح « عامر بن الطفيل »

دار لها غير آياتها كل ملث صوبة زاخر

سارية وغادية : سحابتان ممطرتان . أولاهما تمطر ليلا ، والأخرى تمطر بالغداة . والكر : العود مرة بعد أخرى .

(٥) الشآمية : رياح تهب من ناحية الشام ، واليمانية : رياح تهب من ناحية اليمن،والمور : التحرك بسرعة،قال تعالى من سورة «الطور» « يوم تمور السماء مورا » ، والسرد : من سرد الدرع : نسجها . وفى التعبير تشبيه نسج الريح للتراب حلقا بنسيج حلق الدروع .

(٦) النور : الزهر الأبيض ، والزهاء : مصدر زها نور البنت بمعنى : أشرق ونما ، والبرد : ثوب مخطط ، وتصوير الزهرات فى نبتها ونموها فى صورة البرد المخطط غنى عن البيان .

(٧) الحدب : بفتحتين : ما ارتفع عن الأرض .

(٨) المها ـ جمع مهاة : البقرة الوحشية ، والنقانق : جمع نقنق ، بكسر أوله وثالثه ، ذكر النعام ، وربد : من الربدة : وهى لون يختلط سواده بكدرة .

٩ ـ ومكـدم فى عانـة خفـرت حتى يهيـج شـأوها الورد (٩)

* * *

١٠ ـ فتبادرت درر الشئون على خدى كمـا يتناثر العقـد (١٠)

١١ ـ أو نضح عزلاء الشعيب وقد راح العسيف بمائهـا يعدو (١١)

١٢ ـ لهفى على دعد وما خلفت الا لطـول بليتـى دعـد

١٣ ـ بيضـاء قد لبس الأديم بها ء الحسن فهو لجلدها جلد (١٢)

١٤ ـ ويزين فوديها اذا حسرت ضافى الغدائر فاحم جعد (١٣)

١٥ ـ فالوجه مثل الصبح منبلج والشعر مثل الليـل مسود

١٦ ـ ضدان لما استجمعـا حسنا والضد يظهر حسنه الضـد

١٧ ـ وجبينها صلت وحاجبهـا شخت المخط ازج ممتـد (١٤)

١٨ ـ وكأنها وسنى اذا نظـرت أو مدنف لما يفق بعـد (١٥)

١٩ ـ بفتور عين ما بهـا رمـد وبها تداوى الأعين الرمد

---

(٩) المكدم : حمار الوحش عضته الحمر .

(١٠) الشئون : مفرده شأن ، والمراد به : مجرى الدمع الى العين .

(١١) عزلاء الشعيب : فم المزادة الأسفل ـ والعسيف : الأجير ، وسمى كذلك لأنه يعسف الطرقات مترددا فى الأشغال .

(١٢) الأديم : الجلد .

(١٣) الفودين : مثنى : فود ، وهو معظم شعر الرأس مما يلى الأذنين ، وناحية الرأس ، وحسرت : كشفت رأسها والضافى : السابغ الطويل ، والغدائر : جمع غديرة : الجديلة من الشعر ، والجعد ـ ما فيه التواء وتقبض .

(١٤) صلت : واضح مستو ، شخت المخط : دقيق الخط : وازج : من قولهم : زججت المرأة حاجبيها : دققته وطولته وفى الشعر العربى ـ ويستشهد به النحاة ـ : « وزججن الحواجب والعيونا » .

(١٥) وسنى : نائمة مؤنث وسنان ، والمدنف : المريض .

٢٠ ـ وثريك عرنينا يزينه شمم وخدا لونه الورد (١٦)

٢١ ـ وتجيل مسواك الأراك على * رتل كان رضا به الشهد (١٧)

٢٢ ـ والجيد منها جيد مغزلة تعطو اذا ما طالها المرد (١٨)

٢٣ ـ وامتد من أعضادها قصب فعم تلته مرافق درد (١٩)

٢٤ ـ والمعصمان فما يرى لهما من نعمة وبضاضة زند (٢٠)

٢٥ ـ ولها بنان لو أردت له عقدا يكفك أمكن العقد

٢٦ ـ وكأنما سقيت ترائبها والنحر ماء الحسن اذ تبدو

٢٧ ـ وبصدرها حقان خلتهما كافورتين علاهما نـد (٢١)

* * *

٣٨ ـ ما شانها طول ولا قصر فى خلقها فقوامها قصد

٣٩ ـ ان لم يكن وصل لديك لنا يشفى الصبابة فليكن وعد (٢٢)

٤٠ ـ قد كان أورق وصلكم زمنا فذوى الوصال وأورق الصد (٢٣)

---

(١٦) العرنين : من كل شيء : أوله ، ويطلق على الأنف ، والشمم : ارتفاع الأنف .

(١٧) تجيل : تحرك وتدير ، والأراك : شجر بستاك بأعواده ، والرتل : استواء الأسنان وبياضها وشدة لمعانها .

(١٨) مغزلة : ظبية ذات ولد ، وتعطو : تمد ، والمرد : الغض من ثمر الأراك .

(١٩) أعضادها : جمع عضد ، ما بين المرفق الى الكتف ، والقصب : العظام ، والفعم : المتلىء ، والدرد : التى لا نتوء فيها .

(٢٠) البضاضة : الامتلاء واللين ، والزند : العظم .

(٢١) النـد بالفتح : عود يتبخر به .

(٢٢) الصبابة : رقة الشوق .

(٢٣) ذوى : جف ، والصد : الاعراض .

٤١ — لله أشواقي إذا نـــزحت ... دار بنـا ونـأى بكم بعـد

٤٣ — وزعمت أنك تضمرين لنا ... ودا ، فهـلا ينفــع الــود

٤٤ — وإذا المحب شكا الصدود ولم ... يعطف عليـه فقتـله عمـد

٤٥ — نختصها بالود وهى على ... ما لا تحب ، فهكذا الوجد

٤٦ — أما ترى طمـرى بينهمـا ... رجل ألـح بهـزله الجـد (٢٤)

٤٧ — فالسيف يقطع وهو ذو صدأ ... والنصل يعلو الهام لا الغمد

٤٨ — هل ينفعن السيف حليتـه ... يـوم الجـلاد إذا نبا الحـد

٤٩ — ولقد علمت بأننى رجـل ... فى الصالحات أروح أو أغدو

٥٠ — سلم على الأدنى ومرحمة ... وعلى الحوادث هادىء جلد

٥١ — متجلبب ثوب العفاف وقد ... غفل الرقيب وأمكن الورد

٥٢ — ومجـانب فعل القبيح وقد ... وصل الحبيب وساعد السعد

٥٣ — منع المطامـع أن تثلمنى ... أنى لمعولهـا صفا صلد ؟ (٢٥)

٥٤ — فأروح حـرا من مذلتهـا ... والحرحين يطيعـا عبـد (٢٦)

٥٥ — آليت أمدح مقرفا أبـــدا ... يبقى المديح ويذهب الرفد (٢٧)

٥٦ — هيهات يأبى ذاك لى سلف ... خمدوا ولم يخمد لهم مجد (٢٨)

---

(٢٤) الطمر : الثوب الخلق .. ويريد بقوله : الح بهزله الجد . أن الجد يغلب على الهزل فى حياته ومسلكه .

(٢٥) تثلمنى : تكسرنى . وفى البيت تصوير واضح ، والصـــفا الصلد : الحجر الجاسى أو الصخرة القاسية لا يؤثر فى أى منهما المعول

(٢٦) مذلتها : الضمير فيه راجع الى المطامع .

(٢٧) المقرف : الدعى ، والرفد : العطاء .

(٢٨) يأبى ذاك لى سلف : أى يأبى اجدادى على أن اكون عبـــدا للمطامع .

٥٧ - والجد كندة والبنون همو فزكا البنون وانجب الجد

٥٨ - فلئن قفوت جميل فعلهمو بذميم فعلى اننى وغد

٥٩ - أجمل اذا حاولت فى طلب فالجد يغنى عنك لا الجد (٢٩)

٦٠ - ليكن لديك لسائل فرح ان لم يكن فليحسن الرد

٦١ - وطريد ليل ساقه سغب وهنا الى وقاده برد

٦٢ - أوسعت جهد بشاشةوقرى وعلى الكريم لضيفه الجهد

٦٣ - فتصرم المشتى ومنزله رحب لدى وعيشه رغد

٦٤ - ثم اغتدى ورداؤه نعم اسديتها وردائى الحمد

٦٥ - ياليت شعرى بعد ذلكم ومصير كل مؤمل لحد

٦٦ - أصريع كلم أم صريع ضنى أردى فليس من الردى بد

---

(٢٩) الجد : الاجتهاد ، والمقصود من البيت : ان فى شرف اجداده غناء فيما يرنو اليه ويحاوله .

(ب)

١ ـ فهذه « اليتيمة » درة طويلة النفس كما ترى ، تنظم حباتها فى سلك ، لعل واسطة عقده تلك المحاور التى يمكن حصرها فيمايأتى :

( أ ) أطلال دوائر لفها الصمت .

(ب) صفحة من الذكريات الخالية .

(ج) ضراعة ورجاء .

(د) شموخ وإباء ...

فأما الفكرة الأولى : فقد عزلت خيوطها ورسمت خطوطها عدة خواطر ، فمنذ أتيح للشاعر أن يعرج على مكان صاحبته ( دعد ) ، والساؤلات تطفر بين جنبيه ، وتطفو على لسانه ، يلقيها على المعالم الدائرة التى ران عليها صمت مطبق يلفها ، أشبه ما يكون بصمت القبور ، بعد أن عدت عليها الأيام والليالى ، وجعلتها عرضة للرياح السافيات ، والأمطار الهاطلة ، مما أحال المكان الذى كانت تقيم فيه الى الأمس القريب ، حتى لا ترى العين الا رياحا تعزف بالأنين ، تهب عليه من كل صوب ، ونورا نبت فى عرصاته نتيجة الغيث الهامى الذى يعتاد المكان من آن الى آن .

هذه الحالة أسلمت الشاعر الى شجن مقيم ، أفعم نفسه ، وأثار فيها الذكرى ، خصوصا وقد تراءى لعينيه منظر « النعام » و « المها » ترتع هنا وهناك ، كان هذا مدعاة الى ايقاظ العاطفة ، وهياج المشاعر فى تأساء يقطر مرارة ، ويفيض لوعة ...

لكم كان المكان الى الأمس الدابر واحة للأنس والرفه ، وملاذا للجمال والألفة ، وها هو ذا يستحيل صورا قاتمة ، لايملك المشوق ـ حيالها ـ

من عزاء الا أن يكسب الدموع السواجم ، ويجتر الذكريات المواضى التى تعيش فى أعماقه ، وتستبد بخواطره ، فماذا دهاه ؟

لاشيء سوى أن رحلت عنه صاحبته «دعد» مثال الفتنة الآسرة ، التى خلقها الله لتغرى المشوق ، وترد لهفته فى آن ، هكذا «دعد» صورة للداء والدواء ... أجل لقد كانت تجسيدا للنضارة والروعة : أديمها البهاء والجمال ، وفرعها ليل جدلت ضفائره ، وماذا عسى أن تكون صاحبة هذه الصورة : وجه يشع الحسن السافر ، وعقائص منظومة من خيوط الدجى : غير الاغراء ؟ !!!

ناهيك بكل قسماتها من حواجب زجاء تمتد الى طرف العين ، وجبين ملتمع واضح ونظرة مدلهة ، وعيون فاترة ، وخد متورد ، وأنف أشم ، وجسم يخطر رشاقة وامتلاء ، وترائب سقيت بماء الورد ، وخصر أهيف ، لايكاد - لفرط هيفه - يتماسك مع بقية الجسد اذا نهض لبعض حاجته ، وقدمين لطيفتين ...

استوت لها - باختصار - آيات الحسن والدل ، والروعة والخلابة .. والجاذبية بكل ما تبعث من سحر وتوحى باعجاب ، فاذا أضيف الى هذا كله قامة متسقة لا يشينها طول ، أو يعيبها قصر يضائل من أمارتها فقد صح أن تكون - بذلك - موطن الجمال ، ومنبع الجلال ...

أو لا ترى المشوق على حق فى أن يندفع الى صاحبته بقلب مستهام ، ووجد يعتاده وتباريح ترهقه ، وجوى يضنيه ، ولله هذا المشوق الذى آلت حاله الى صورة من الهزال ، ولم يطمع فى صاحبته بأكثر من وعد تبذله قريرة العين ، بعد أن ضنت عليه بالوصل واللقاء

كأنى به يهتف مع «جميل» بما قله فى صاحبته «بثينة» :

وأنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشى لقرت بلابله

بلا ، وبألا ،استطيــع وبالمنــى وبالوعــد حتى يسام الوعد آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخــره لا نلتقى وأوائله (١)

حين أعرضت عنه ، ولم تعره التفاتة أو انعطافة ..

أفاذا تحولت « دعد » عن مكانها الأول الى سواه جعلت من ذلك ذريعة للهجران وتقطيع الروابط ؟

ذلك ما لا يكون ، فهوى المشوق من الثبات والملازمة لصاحبته باق معه ، حيثما رحلت ، وأنى توجهت !!!

بهذه اللهجة الحارة ارتبط الشاعر بـ « دعد » ، وغريب هذا الاصرار الذى يبدو منها تجاهه ، حيث المحاولات الجاهدة فى قتله عمــدا دون ذنب أو جريرة ، والا ففيم الاغضاء عنه ، ومثله فى حاجة ماسة الى العطف عليه ، وهدهدة مشاعره الظمأى ؟ وماذا يكلفها ذلك غير دفقة من حنو ، ترق فيها وترثى لحاله التى تتذطع النفس دونهــا حسرة واشفاقا ؟ !!

على أن ذلك كله ـ مع حاله من سورة ـ لم ينهض أن يعصف بمــا جبل عليه من كريم الأخلاق وجميل المروءة والرجولة ، فما يزال ـ الى تلك المواقف ـ قادرا على التجلد والتماسك والأخذ بأسباب المضاء فى الامور ، والفتاء أمام الأحداث بما يملك من عزيمة وارادة متأسيا فى ذلك بما أثر عن « الشافعى » من قوله :

على ثيــاب لو تبــاع جميعهــا بفلس ، لكان الفلس منهن اكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضــها نفوس الورى كانت أجــل وأكبرا

---

(١) ديوان جميل بثينة ١١٥ ـ دار صادر ـ بيروت ـ قدم لــه : بطرس البستانى .

وما ضر نصل السيف اخلاق غمده  اذا كان عضباحيث انفذته فرى(٢)

وبمـا قيل :

ترى الرجل النحيف فتزدريـــه  وفى أثوابـه أســـد هصـــور

وما كان للشاعر أن يهون ، أو تستعبده العواطف ، وله ماله من مآثر كريمة وأياد بيض شهدتها ميادين الأخلاق والرجولة ، وهيات للمكاره أن تعرف السبيل اليه ، بعد أن خبرته فلوى رمحه - فى وجهها - غيـــر راحم ، وقلب ظهر المجن فى غير وهن أو هوادة ، وليس الشاعر بالذى اذا شام برقا يومض جرى وراءه لاهثا ، املا فى مطمع ، أو اعتـدادا بنوال ، على نحو ما هو ذائع عند بعض المحبين ، فعلاقته بصاحبته خلو من الأغراض والأوشاب ، يسمو فيها عن المنفعة ، ولا يتقمم الصغائر بل الحب عنده تجرد وروح ، وجذوة متقدة لا تخبـو بمنفعة تتدسس اليه ، ومتى كان الحب عبودية يقع فيها المحب فريسة لما يداخـله من نفعية ؟ ان ذلك بعينه هو الداء العضال الذى ينخر فى العلاقـة حتى تتبدد ... وبعيد بعيد ان يكون الشاعر على تلك الصـــورة الزرية فى علاقته بـ «دعد» وما عرف عن أصوله ممن انحدر منهم الارتكاس فى أسفاف أو التدلى الى هبوط ، كيف ومنشؤه بربأ به عن مهاوى الدنايا والخنوع ، وفضلا عن ذلك فان مرباه يحول دون التورط فى مآثم قـد تعدو على ما شاده اجداده من اصول اخلاقية،تنبو عن الفعل الذميم من الخور ، أو الضعف وما اليهما مما يعد خروجا على ما تشربه من مبادىء أو مثل ...

على أن الخواطر التى تهجس فيه ، وتحتدم بين أعماقه من اليسير عليه أن يكبح جماحها ، كما أن فى وسعه ان يطاردها أو يهونها بالصبر

---

(٢) أنظر : ديوان الامام الشافعى .

الذى يتذرع به ، فما استحق المرء أن يكون انسانا الا بالارادة يمتلك زمامها ، ومن مظاهر هذه الارادة فى الانسان ألا يضعن على صاحبه بكلمة رقيقة ـ يطب لها بها ، ويمسح عنه كربته ، ويخفف ما لعله يدوى بين جوانحه من معاناة ، ويهدر من زفرات ...

٢ ـ وهذه المعانى التى ماجت بها القصيدة تنازعها ـ كما ألمحنا آنفا ـ غير شاعر ، ولعل ذلك يؤكد أن عالم الكلمة بشاكل دنيا الناس ، ففى كليهما ألوان من الظلم ، وأنواع من الافتنات تتفاوت فداحة وقسوة، وسهولة وخفة ، الا أن من اليسير ـ فى دنيا الناس ـ أن ينصب الانسان من نفسه قاضيا ابتغاء الوقوف على أشكال من الظلم المادى تمور بها الحياة .

أما «الظلم» فى دنيا الفكر فالتصدى لتمييز صوره أمر دونه خرط القتاد ، لما يعوزه من المام وبصيرة وتجرد وثقافة عريضة ، وانفتاح على كل ما تخرجه أفواه المطابع هنا وهناك رغبة فى الوقوف على الجديد أولا بأول ، وهو مطلب شاق ، ان لم نقل أنه المحال ...

وربما كان ذلك أو بعضه ما لفت أنظار النقاد قديما ، حيث عكفوا على قضية « السرق الأدبى » ، وتفتقت أذهانهم فيها عن روائع مع الأحكام تنبىء عن افتنان فى الفكر ، وألمعية فى النظر ، وسمو فى الذوق ، والمام فى القراءة عريض ، حتى لقد فرقوا بين ألوان من السرق، أطلقوا عليها أسماء معينة كالاغارة والسلب والأخذ والسرقة وغيرها ، وجاءت أحكامهم فى نطاقها غاية فى الدقة والنظرة السديدة ...

والواقع الذى لا يرقى اليه شك أن كتب التراث النقدى القديم تحفل بصفحات مشرقة ومباحث رائعة حول هذه القضية التى لا نود أن نسترسل فى الحديث عنها بما يصرفنا عن التعليق على«الدعدية»،وهو الذىنرومه فى هذا المقام ، ولهذا سنجتزىء باللمح ، ونقنع بالاشارة .

ونظرة متأملة فى كتاب ( الوساطة بين «المتنبى وخصومه» - وهو واحد من أمهات الكتب النقدية - للقاضى ( على بن عبد العزيز الجرجانى) المتوفى فى القرن الرابع الهجرى تطلعك على أبعاد هذه القضية ...

يقول «الجرجانى» فيما تضمنه كتابه :

« والسرق - أيدك الله - داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد ، وان تجاوز ذلك قليلا فى الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ ، ثم تسبب المحدثون الى اخفائه بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكد والتعريض فى حال ، والتصريح فى أخرى ، والاحتجاج والتعليل فصار أحدهم اذا أخذ معنى أضاف اليه من هذه الأمور ما لا يقطر معه عن اختراعه وابداع مثله ، وقد ادعى «جرير» على الفرزدق السرق : فقال :

ستعلم من يكون ابوه قينا ومن عرفت قصائده اجتلابا

وادعى « الفرزدق » على «جرير» فقال :

ان استراقك يا «جرير» قصائدى مثل ادعاك سوى أبيك تنقل

ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب فيه الى المعذرة ، وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى ، وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل على بقايا ، : اما أن تكون تركت رغبة اليها ، ومتى أجهد أحدنا نفسه واعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا ، ونظم بيت يحبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثالا يغض من حسنه ، ولهذا السبب أخطر على نفسى ، ولا أرى

لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة ، وقد أحسن « أحمد بن أبى طاهر» فى محاجة « البحترى » لما ادعى عليه السرق قوله :

والشعر ظهر طريق أنت راكبه فمنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالى على الطنب

الا أنى اذا وجدت فى شعره معانى كثيرة أجدها لغيره حكمن بأن فيها مأخوذا لا أثبته بعينه ، ومسروقا لا يتميز لى من غيره وانما أقول : قال فلان كذا ، وقد سبقه اليه فلان فقال كذا ، فأغتنم به فضيلة الصدق ، وأسلم من اقتحام التهور (٣) .

وكلام القاضى الجرجانى يدل على أنه ناقد يتحرى النصفة ، والتحوط فى الأحكام ، والتحسب فى الحيثيات ، كذلك يدل على فطنة لما صنع المحدثون - على عهده - بالشعر ، وكيف أفتنوا فى الأخذ من القدامى مع احتيال لا يتبدى الا لناقد طلعة ، وتأمل موقفه من «المتنبى» فيما ذكره قائلا :

« ومن لطيف السرق ما جاء به على وجه القلب ، وقصد به النقض كقول « المتنبى » :

أأحبه وأحب فيه ملامة ان الملامة فيه من أعدائه

انما نقض قول « أبى الشيص » :

أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم

وأصله لأبى نواس فى قوله :

اذا غاديتنى بصبوح عذل فممزوجا بتسمية الحبيب
فانى لا أعد اللوم فيه عليك اذا فعلت من الذنوب

---

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٢١٤ تحقيق وشرح الأستاذين : على البجاوى ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم .

ويضيف ( الجرجانى ) - بعد الحكم على هذا بالسرق اللطيف - قوله :

« وهذا باب يحتاج الى انعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الاقدام قبل التبين ، والحكم الا بعد الثقة وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضا بالصناعة ، متدربا بالنقد ، وقد تحمل المصيبة فيه العالم على دفع العيبان ، وجحد المشاهدة ، فلا يزيد على التعرض للفضيحة ، والاشتهار بالجور والتحامل » (٤)

واذا ساغ لبعض الشعراء أن يأخذ فكرة أو معنى من سابقه - على نحو ما جاء فى الأبيات السابقة التى عرض لها «الجرجانى» - فانالضرب الذى لا يسوغ بحال أن تنسب قصيدة كاملة الى شاعرين أو أكثر - ومن ثم تظل بعض القصائد حائرة لا تدرى الى من تنتمى ، والأغرب أن تأخذ هذه القصيدة حظها من الذيوع والسطوح منسوبة لا الى صاحبها الحقيقى، وانما لمن ادعاها لنفسه من الشعراء ، ويزيد الأمر قسوة أن يعيش صاحب القصيدة منزويا فى منطقة الظل ، أو فى زوايا النسيان ومطارح الاهمال ...

ومن هذه القصائد الحائرة فى الشعر العربى - قديما - « اليتيمة» أو « الدعدية » ...

ويقتضينا المقام أن نميط اللثام عن هذه القصيدة بكلمة تسهم فى التعريف بها ، ثم نحاول - فى أعقاب ذلك - أن نلقى بعض الأضواء الكاشفة ، فى التوصل الى ما نراه حولها - فى موضوعية هادية ، وتعقب يؤيده الدليل ، ويقوم عليه البرهان ...

* * *

---

(٤) ذاته ٢٠٦ وما بعدها .

يقولون أن سبب تسميتها « الدعدية » أن أميرة من أهل اليمن أو «نجد» آلت على نفسها ألا تقبل الزواج الا من رجل على مستوى من اللسن والفصاحة ، بحيث يبرزها فيكون لها كفئا أو نظيرا فى بلاغته وأسره ...

ولبثت على تلك الحال مدة زمنية ، توافد عليها فى أثنائها ثلة من الشعراء وفرسان الكلمة المقاويل ، غير أن واحدا فيهم لم يثبت كفاءته واقتداره ازاءها .. ، ثم قيض الله سبحانه لها شاعرا مفلقا ، يجمع الى شاعريته شجاعة منقطعة النظير ، فتهيأ للقائها بعد أن اعتزم أن تكون الجولة له ، وأعد قصيدة عصماء ، وأخذ صوبه الى حيث كانت تقيم ، وفيما هو فى الطريق اليها تقدم منه رجل ، فسأله عن غايته ، وأخبره الشاعر بأمره وقص عليه قصته ، وكان هذا الرجل ممن سبق له أن طلب يد هذه الأميرة ، فأخفقت مساعيه ...

قلب الرجل الأمر على وجوهه ، ورآها فرصة سانحة أن يعمل ما وسعته الحيلة ليصيب من الشاعر مقتلا ، لعله يعبد الطريق ثانية الى الأميرة .. ولم يكن من سبيل أمامه الا أن يغير على القصيدة التى كانت بين يدى الشاعر ، فيدعيها لنفسه ومضى بعد ذلك الى الأميرة ... وما درى بأن القدر قد نصب له شباكا ، جزاء وفاقا على جناية القتل التى تلطخت يده بدمائها ... وذلك اذ وجهت اليه الأميرة بعض أسئلة لتتأكد من هويته ، فكان جوابه عنها مختلفا عما تردد فى ثنايا القصيدة وأدركت الأميرة لفورها أن هذا الرجل قتل بعلها ، واستعدت الحضور عليه ليقتلوه ... صائحة : هذا قاتل بعلى فاقتلوه .

ويذكر بعض الباحثين أن هذه القصيدة سميت بـ «اليتيمة » اما تشبيها لها فى جمالها بالدرة اليتيمة ، أو لأن صاحبها - فى زعم أسطورتها - قتل عنها فتيتمت ، وقد ذكر من نشرها من المحدثين أنها لشاعر جاهلى ، مع أنه لم يذكرها أحد من الرواة الأقدمين ، ولا ذكروا

أسطورتها ، وليس من المعقول أن يذهب على مثلهم ، وهم الذين تقصوا الشعر الجاهلى ، وأخبار العرب ، ولم يتركوا اشارة الا ذكروها ، والذى يرجح أنها لشاعر عاش فى عهد العباسيين بدليل أن بعض أدباء هـذا العهد ذكروا منها هذين البيتين :

والوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

وقالوا : أنهما لأحد شعراء زماننا ، وروى ( العكبرى ) هذين البيتين فى كتابه « التبيان » شرح ديوان ( أبى الطيب المتنبى ) وذكر قول ( أبى الفتح ابن فوزجه ) فيهما : انهما للمنبجى ، وقل « ابن فوزجه » « المنبجى » دون تعريف آخر يدل على أنه شاعر معروف ، ولكننا لم نعثر له على ترجمة ، فاذا صح هذا انقضت الأسطورة (٥) .

وللشاعر الأديب الأستاذ « العوضى الوكيل » خطرات ـ حول تلك القصيدة ـ يقول فيها :

« وقد ادعى القصيدة الدعدية أربعون شاعرا حلفوا على انتحالها ، وتماروا عليها فيما بينهم ، ومن أشهر ما نسبت اليهم : ذو الرمة غيلان ، والعكوك ، وأبو الشيص الخزاعى ..

ثم يقول :

ويرى صديقنا ( عبد الله الجبورى ) أمين مكتبة الأوقاف العامة ببغداد أنها الى ( أبى الشيص ) أرجح ، لشدة التشابه بينها وبين كثير

---

(٥) المجانى الحديثة : اشراف ( فؤاد أفرام البستانى ٣/٣٣١ المطبعة الكاثوليكية ( بيروت ) .

من شعره ، وان كان يؤكد أن أبياتا أضيفت اليـــه من غير شـــعر « أبى الشيص » (٦)

وتستوقفنا ـ بالطبع ـ هذه الآراء على تباينها وتفاوتها ، وتملى علينا أن ندلى بما قد نرتضيه من وجهة نظر تتعزز لدينا بأدلة تراهـا دامغة أو راجحة على الأقل ..

والذى يتأمل تلك الآراء يكاد ينفى أن تكون «الدعدية» من أنماط الشعر الجاهلى شكلا ومضمونا بدليل ما يلى :

( أ ) اختلاف البناء الفنى « للدعدية » عن المألوس فى القصيدة الجاهلية ... فمعلوم أن القصيدة الجاهلية فى الأغلب الأعم تتوارد على معان عديدة ، تدخل فى بنيتها ، يعمد الشاعر الى أن يجىء الغـــرض من تلك النفثة الشاعرة فى أعقاب خواطر يأخذ بعضها بحجز بعض ، فالقصيدة المادحة لم تكن لتبدأ بالحديث عن الممدوح ، وانما يستهلهـا الشاعر بوقفة على الطلل ، يلم فيها ببعض الذكريـــات التى أفعمت مشاعره ، ثم يخلص منها الى ما عرض له فى الرحلة الى الممدوح مـن عقاب وصعاب ، على ظهر ناقته التى تلازمه فى الغـــدوة الميمونة ، والروحة المباركة .. الى غير ذلك ..

ولم يسلم من الشعر الجاهلى فى قصائده المتعددة الأفكار الا النزر اليسير الذى جاء يتمحض لغرض واحد ، يلف القصيدة من مطلعها الى منتهاها ، ومن هذا قصيدة « نابغة بنى ذبيان » فى وصف المتجردة ، وهى قصيدة تشبه القصيدة الدعدية فى تجردها للغزل المادى ، فكلتاهما

---

(٦) مطالعات وذكريات ١٨١ ( المكتبة الثقافية العدد ٢٨٤ ) .

تستقى من معين واحد ، ترفده مفاتن المرأة واستقصاء آيات الحسن الباهر ، والجاذبية الخلابة .

فاذا قال « النابغة » فى قصيدته :

نظرت بمقلة شادن متربب أحوى أحم المقلتين مقلد
والنظم فى سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد (٧)

جاءت «اليتيمة» تنسج على هذا المنوال قائلة :

فكأنها وسنى اذا نظرت أو مدنف لما يفق بعد
بفتور عين ما بها رمد وبها تداوى الأعين الرمد

* * *

وكأنما سقيت ترائبها والنحر ماء الورد والخد

وحين يقول « النابغة » :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكان من اللطافة يعقد (٨)

تنبرى « اليتيمة » تردد :

ولها بنان لو أردت له عقدا بكفك أمكن العقد

وهكذا ترى القصيدتين تنطقان بالغزل المادى الذى لم يترك من

---

(٧) ديوان النابغة الذبيانى ٩١ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .
(٨) ذاته ٩٣.

جسد المرأة عضوا الا تناوله بالوصف ، وتلك هى الخصيصة المشتركة بينهما ، وقد تضيف « الدعدية » بعض خواطر تتصل اتصالا وثيقا بما تصدت له القصيدة أصلا من حيث الأطناب فى الوصف ، وطول النفس فى تعداد المحاسن .

(ب) وقد يبدو التصوير الفنى فى القصيدتين متشابها فى اطاره العام ، لكن نظرة مترويه فى هذا التصوير الذى يتخلل القصيدتين يمكن أن تفضى الى الحكم بأن الصورة لدى «النابغة» مشدودة الى بيئة الشعر الجاهلى ، فلا شك أن تصويره «النابغة» لشعر «المتجردة» فى قوله :

ويفاحم رجل أثيث نبته  كالكرم مال على الدعام المسند (٩)

يسرى فى الشعر الجاهلى ، ويردد صورته غير واحد منهم

فهذا « الأعشى » ميمون بن قيس » يقول :

تميل جثلا على المتنين ذا خصل  يحبو مواشطه مسكا وتطيابا (١٠)

و ( سويد بن أبى كاهل اليشكرى ) يقول :

بسطت رابعة الحبل لنا  فوصلنا الحبل منها ما اتسع

حرة تجلو شتيتا واضحا  كشعاع الشمس فى الغيم سطع

الى أن ينتهى فيذكر :

وقرونا سابغا أطرافها  علتها ريح مسك ذى فنع (١١)

---

(٩) السابق ٩٦

(١٠) ديوان الاعشى ٣٦١ شرح وتعليق المرحوم د . محمد محمد حسين ـ المطبعة النموذجية .

(١١) المفضليات ١٩١ تحقيق وشرح الأستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون .

فى صور يحفل بها الشعر الجاهلى وشعر الخضرمة على سواء ، وكأنما الأصباغ التى لونتها كانت معروفة مألوفة لـــدى الشعراء من الجاهليين والمخضرمين ، فاذا جئنا الى هذه الصـورة فى (الدعدية) ألفينا اختلافا بين الصورتين ، على نحو ما جاء فى (الدعدية) :

ويزيـن فوديهــا اذا حســرت ... ضـافى الغـدائر فاحم جعـد
فالوجـه مثـل الصبح منبلـج ... والشـعر مثـل الليـل مسـود
ضـدان لـمـا استجمعـا حسـنا ... والضـد يظهـر حسنه الضـد

فالصورة فى هذه الأبيات طريفة ، تنأى عن الصورة السابقة ، ولعل مبعث هذه الطرافة منها بيئة حضارية ، عرفت ما للألوان المتضـادة من فلسفة فى الجمال ورونق فى المظهر ، على نحو ما جاءت به صورة «الدعدية» ... هذا فضلا عن انطواء صورة التشبيه فيها على الصـورة الشائعة : « والليل مثل الشعر مسود » . وهو تشبيه نلحظه فى الشعر العربى ، جرى فى شعر شوقى أمير الشعراء فى قصيدته « يا جـــارة الوادى » حيث قـال :

ودخلت فى ليلين:فرعك والدجى ... ولثمت كالصبح المنـور فـــاك

مع افتنان فى الصورة لا أكثر ... !!!

(ج) على أن ألفاظ «الدعدية» وأساليبها ليس عليها المسحة الفنية للشعر الجاهلى ألفاظا وأساليب من حيث الجزالة والفخامة ، وانمـــا الالفاظ والأساليب فيها تميل الى السهولة ، وتجنح الى الخفة والرشاقة ، فليس لها خصائص الشعر الجاهلى أو طابعه الذى يسم الألفاظ والأساليب بميسم فنى معين يتردد فى الشعر الجاهلى بعامة ..

وقد يترجح هذا الدليل لدينا فى استبعاد أن يكون «الدعدية» من قبيل القصائد الجاهلية .

(د) ويجب أن يكون واضحا أن مطلع «الدعدية» وان أخذ سمت القصيدة الجاهلية لا يقدح فيما نميل اليه ونذهب ، ذلك أن مطالع القصائد لازمت القصيدة ، حتى فى العصر العباسى الذى بدأ فيه التمرد على هذه المطالع المطالبة يتجلى فى مد وانتشار على يد ( أبى نواس ) الذى أثر عنه قوله :

قل لمن يبكى على رسم درس  واقفا ما ضر لو كان جلس !!!
اترك الربع وسلمى جانبا  واصطبح كرخية مثل القبس(١٢)

فقد كانت دعوته الى نبذ تلك المطالع ، واستبدال الخمر بالحديث عنها - كما يظهر - مشايعة لأفكار بعض الخلفاء فى ذلك العصر ، ولم تكن عن اقتناع من داخله ، أو ايمان بما يقول ، والا ففيم قوله اذا كان صادقا أو جادا :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا  فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى الى نعت الطلول مسلط  تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة  وان كنت قد جشمتنى مركبا وعرا(١٣)

(هـ) أما المعانى التى ألمت بها الدعدية فمن المعانى الشائعة التى يمكن أن تقع للشعراء فى العصر الجاهلى ، مثلما تعن لشعراء العصر العباسى ، ومن الجور فى الحكم والاعتساف فى النظرة ان نقصر المعنى الذى ألمت به أبياتها على عصر دون غيره ، فالمعانى مشتركة ، بدليل ما نجده - على سبيل المثال لا الحصر - فى بعض أشعار العباسيين ،

---

(١٢) ديوان أبى نواس ١٣٤ تحقيق وضبط وشرح احمد عبد المجيد الغزالى .

(١٣) العمدة لابن رشيق ، ٢٣٢/١ تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت .

حيث نراها تنتمى بسبب أو آخر الى الشعر الجاهلى ، مع اختـــلاف العصرين ، وبعد الشقة بينهما ...

وفى لمح ذكى يتحدث (الآمدى) عن هذه القضية بعد أن زعـم ( ابن أبى طاهر ) أن «أبا تمام » فى قولـه :

ألم تمت ياشقيق الجود من زمن  فقال لى:لم يمت من لميمتكرمه

معتمدا على قول ( العتابى ) :

ردت صنائعـه اليـــه حيـاته  فكانـــه من نشـــرها منشـــور

يقـول (الآمدى ) :

« ومثل هذا لا يقال له مسروق ، لأنه قد جرى فى عادات الناس اذا مات الرجل من أهل الفضل والخير ، وأثنوا عليه بالجميل أن يقولوا ( ما مات من خلف مثل هذا الثناء ، ولا من ذكر مثل هذا الذكر ) وذلك شائع فى كل أمة ، وفى كل لسان » (١٤) .

* * *

كل هذه أدلة تتالق أمامنا ، ونرى فى هديها أن تكون (الدعدية) بعيدة الصلة بالشعر الجاهلى ، أو محسوبة عليه ، ويقودنا هذا بالتالى الى احتمال أن تكون القصيدة عباسية ، فأما الى لمن تنسب : أ الىالعكوك « على بن جبلة » أم الى (أبىالشيص) فلذلك وقفة أخرى ، لا فكاك لنـا عنهـا بحال ترسما للموضوعية فى البحث ، عسى أن نقع على الحقيقة القاطعة ، فان لم يكن فالاقتراب من ساحتها على الأقل ...

---

(١٤)الموازنة ١/١٢٣ تحقيق الأستاذ/السيد أحمد صقرط : ٢

ولنبدأ فى ذلك من المنطلق الأول ، وهو التعريف السريع بالشاعرين ، والعصر الذى كان يظلهما ، رغبة فى أن يكون هذا معينا على ما نروم ونقصد ...

أما ( أبو الشيص ) الذى نسبت اليه «الدعدية» فهو - كما يحدث « الأصفهانى » صاحب الأغانى - شاعر يتوسط شعراء عصره مكانة ، غير نبيه الذكر بينهم ، لوقوعه بين « مسلم بن الوليد » وأشجع ، وأبى نواس (١٥) .

واسمه « محمد بن رزين »، أو « محمد بن عبد الله بن رزين » ، و « أبو الشيص » لقب غلب عليه ، وهو وعم « دعبل بن على بن رزين الخزاعى » أو «ابن عمه» ، كف بصره فى أخريات عمره ، فراح يرثى عينيه بمراث تقطر توجعا ، وتفيض ألما وحسرة ومن جيد شعره :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخر عنه ولا متقدم
واهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ... ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم ... اذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذاذة ... حبا لك لذكرك ، فليلمنى اللوم (١٦)

وحين مات « الرشيد » رثاه ، ومدح «محمدا» فقال :

جرت جوار بالسعد والنحس ... فنحن فى وحشة وفى انس
العين تبكى والسن ضاحكة ... فنحن فى مأتم وفى عرس

---

(١٥) الأغانى ١٦/٤٠٠ تحقيق مصطفى السقا - مطبعة دار الكتب.
(١٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٨٤٣ تحقيق الأستاذ محمد احمد شاكر ، وانظر الأغانى .

يضحكنا القائم الأمين وتبـــ كينـا وفـــاة الامـام بالأمس
بدران بدر أضحى ببغداد فى الـ خلد ، وبدر بطوس فى الرمس (١٧)

وأما «العكوك» فشاعر عباسى أيضا عاصر « أبا الشيص » ، وكان يمدح « أبا دلف » القاسم بن عيسى ، وقد أسرف فى مدحه « فكفر أو قارب الكفر » ومنه قوله فيه :

أنت الذى تنزل الأيـام منزلهـا وتنقل الدهر من حال الى حال
وما مددت مدى طرف الى أحد الا قضـيت بأرزاق وآجـال
تزور سخطا فتمسى البيض راضية وتستهل فتبكى أوجه المال (١٨)

توفى سنة ٢١٣هـ أو بعدها بقليل ...

تلك وجازة سريعة عن الشاعرين ، والعصر الذى ضمهما ..

ويبقى الحكم على أى هذين الشاعرين يمكن أن تكون القصيـدة منسوبة اليه على سبيل الرجحان ؟

ان من يمعن النظر فى شعر « على بن جبلة » الملقب بالعكوك ، رغبة فى معرفة سيماه وخصائصه الفنية ، يجد أن أغلب ما أثر عنه من شعر يدور حول المدح الذى اختص به رجال الدولة على عهده من أمثال « حميد بن عبد الحميد الطوسى » و « عبد الله بن طـاهر » و « أبى دلف » الذى أشرنا اليه منذ قليل ...

وليس يعنى هذا أن الغزل عنده يتوارى عن الأغراض التى تشكل

---

(١٧) ذاته الشعر والشعراء ٨٤٣/٢
(١٨) ذاته ٨٦٤ وما بعدها .

جملة شعره ، بل مرادنا بذلك أن الغزل لا يتصدر أغراض شعره ، على أن له طابعا معينا لخصه الدكتور « حسين عطوان » وذلك حيث قال :

« ومن أغراض شعره الغزل ، وهو عنده نوعان : نوع قدم به لبعض مدائحه وجدد فى معانيه وأسلوبه ، ونوع اتخذ شكل المقطوعة المستقلة عن غيرها من الموضوعات وهو فيه لا يسف ولا يتدنى ، بل يظل يحلق بعيدا عن الدنيات والماديات ، مصورا هيامه بأحبته وتعلقه بها ، وما يقاسى من المواجد والآلام لبعدها ، مما لم تظفر به عند الكثرة الغالبة من أشعراء العصر العباسى ، لأنهم انما تحدثوا فى غزلهم الذى أفردوا له مقطوعات خاصة عن مجونهم وعبثهم مع الجوارى والقيان ، ومن طريف عزله قوله :

لو ان لى صبرها أو عندها جزعى
فكنت أعلم ما آتى وما أدع
لا أحمل اللوم فيها والغرام بها
ما حمل الله نفسا فوق ما تسع
اذا دعا باسمها داع فاسمعنى
كادت له شعبة من مهجتى تقع

وهذا غزل فى غاية الرقة والعذوبة (١٩) .

وتأسيسا على ما ينطوى عليه ( العكوك ) فى غزله - نستبعد أن تكون « الدعدية » من شعره ...

كذلك فنسبتها الى « ذى الرمة » أمر بعيد ، لأن لذى الرمة اطارا

---

(١٩) شعر (على بن جبلة) الملقب العكوك ١٥ د. حسين عطوان - دار المعارف بمصر .

ومعجما شعريين فى كثير عن اطار هذه القصيدة ومعجمها الشعرى ، ذلك أن ( ذا الرمة ) فى معجمه اللغوى يخضع لعوامل البيئة ، وطبيعة العصر ، وسطوة التراث ، ويملك - فى الوقت نفسه - القدرة على اخضاع هذه العوامل لطبيعة الغرض الذى يتناوله فى شعره ، فالبيئة بدوية تميل فى نطقها الى الأصول القوية السريعة التى تطرق الآذان كأنما هى فرقعات ، والى الألفاظ التى تتلاءم مع ما عرف عن البدو من غلظ وجفاء ، وتتمشى مع طبيعة الصحراء الشاسعة التى قد تفنى فيها الأصوات فى جو لا آخر له » (٢٠) .

ولسنا فى حاجة الى أن نعرض بعض أنماط من شعر « ذى الرمة » الغزلى ، حتى نؤكد ما نقول ، فذلك موجود فى مظانه ومصادره ...

والاقرب اذن أن تكون القصيدة لأبى الشيص الخزاعى ، فهى انما تنبىء عنه وتدل عليه ، وهذا ما ذهب اليه بعض الباحثين المعاصرين .

وليس عجبا أن يكون بين الشعر العربى قصائد حائرة على تلك الشاكلة فى الشعر القديم ، فما تزال - وستظل - هنالك قصائد يتجاذبها نفر من الشعراء لا فى الشعر القديم بل فى الشعر المعاصر ، وربما كان لذلك دلالته ومفهومه فى أن الشعر العربى - فى كل عصر من عصوره من المد والاتساع بحيث لا يمكن أن تكون القصيدة - بالقطع - عنوانا لقائلها ، أو يكون قائلها دالا عليها بحال ...

ولو تتبعنا مسيرة الشعر العربى من القديم الى الحديث لوجدنا فيها قصائد لم يقطع فيها النقد برأى ، ونكتفى بايراد مثالين اثنين ،

---

(٢٠) ذو الرمة ( غيلان بن عقبة ٢٠٨ د. محمد عبد المنعم خاطر ، نشر مكتبة سماح بطنطا .

أحدهما من الشعر القديم ، والآخر من الشعر المعاصر ، حتى لا يبقى فى النفس طائف من شك فيما نحن بصدده الآن :

١ - أما النموذج الأول فهى تلك القصيدة الذائعة فى مدح « على زين العابدين » رضى الله عنه فيما يقال ، والتى اشتهرت نسبتها الى ( الفرزدق ) ، ونجتزىء منها بتلك الأبيات :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهمو
هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
فليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم
اذا رأته قريش قال قائلها
الى مكارم هذا ينتهى الكرم

فهى تتردد بين عدد من الشعراء ، أظهرهم ( الفرزدق ) ..

ولم يفت - نقادنا القدامى - أن يبحثوا هذه القضايا ومثيلاتها ، وأن يجهدوا فى الموازنة والاستنباط ، اتساقا مع ما تقتضيه الدقة من الوقوف على الموضوعية فى بلوغ الحقيقة .

ومن هذا ما يروى « ابن دريد » فى قوله :

« سمعت الأصمعى « يقول : تسعة أعشار شعر ( الفرزدق ) سرقة ،

وكان يكابر ، وأما ( جرير ) فما علمته سرق الا نصف بيت » ولكن ( الرزبانى ) يعلق على هذه القضية قائلا :

« وهذا تحامل شديد من ( الأصمعى ) ، وتقول على ( الفرزدق ) لهجائه بأهله ، ولسنا نشك أن ( الفرزدق ) قد أغار على بعض الشعراء فى أبيات معروفة ، فأما أن نطلق أن تسعة أعشار شعره سرقة فهذا محال ...

ويضرب ( المرزبانى ) العديد من الأمثلة على تأكيد ذلك ، ومنها:

أن ( الفرزدق ) قدم « المدينة » فمر بجماعة من الناس قد استنكفوا على « جميل » وهو ينشد ، فوقف بين الناس يستمع له حتى قال :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا  وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

فصاح به « الفرزدق » : أنا أحق بهذا البيت منك ، وانصرف فانتحله » (٢١) .

كثيرة هى الأمثلة التى ادعاها ( الفرزدق ) لنفسه وطار صيته بها ، وان شئت أمثلة أخرى فدونك الموشح والأغانى وما اليها من المصادر والمراجع .

٢ ـ ومناط الغرابة ـ ان صح أن تكون ـ فى القصائد الثائهة فى الشعر العربى المعاصر ، بل ربما تجاوز ذلك عالم القصة ، وقد فجر هذه القضية من مدة وجيزة الأديب الناقد الأستاذ « عباس خضر » (٢٢) .

ومن قبيل الاستطراد ـ هنا ـ نذكر ما قاله ذلك الأديب ، فى هذا المعنى :

---

(٢١) الموشح ٩٦ وما بعدها ـ الطبعة الثانية ـ المطبعة السلفية .

(٢٢) راجع كتابه ( خطى مشيناها ) .

« جاءنى « شوقى أمين » يوما وقال لى : ان ( تيمور ) يرفع الكتابة عن « الحجاج » فى عمل أدبى ، وقد عهد الى بجمع المواد التاريخية وهو عمل ضخم ، سكت ، ثم قال فى عبارة رقيقة : هل لك أن تساعدنا فيه ؟ أجبت : بكل سرور ، وكان المطلوب منى أن أنقل ما فى المراجع التاريخية خاصا بالحجاج ، وكان ( شوقى ) يأتينى بالمراجع ويأخذ منى ما أكتب ، ثم يأتينى بالنقود ...

طهرت بعد سنين مسرحية ( ابن جلا ) وهو الحجاج الثقفى لمحمود تيمور ، وكنت وقت تمثيلها على المسرح أكتب فى مجلة ( الرسالة ) فكتبت عنها ، وأنا أحس فى داخلى بأسف ، لأنى أبرزت جهد المؤلف والمخرج « زكى طليمات » والممثلين ، ولم أستطع أن أشير الى جهد آخر « وراء الكواليس » هو جهد « شوقى أمين » ...

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، ولكنه تخطاه الى آماد بعيدة ، تنمو فيها بذور الحيرة وتترعرع ، فمن قائل ان قصائد الشاعر « عزيز أباظة » ومسرحياته الشعرية كان وراءها المرحوم « أحمد محرم » ، حتى اذا مات ( محرم ) استطاع « عزيز أباظة » أن يقنع الشاعر المرحوم « أحمد مخيمر » كى يحل محل سلفه فى كتابة القصائد والمسرحيات ومن قائل آخر ، يرى أن ديوانا بأكمله نسب الى الشاعر الراحل الدكتور ( ابراهيم ناجى ) صاحب الاطلال ، والحقيقة أنه من ابداع يراعة الشاعر السودانى « التيجانى يوسف بشير » الذى أرسل ديوانه هذا الى ( ابراهيم ناجى ) بغية أن يكتب مقدمته لا غير ، ويشاء الله أن يختار الى جواره « التيجانى » مما ترك الفرصة أمام ( ناجى ) فى ادعائه أن يكون الديوان له ، وهو الديوان الأول الذى قد انتهى منه (٢٣) .

---

(٢٣) طالع مجلة ( الدوحة ) اكتوبر ١٩٧٧ من قال للأستاذ ( رجاء النقاش ) .

وليست هذه الظاهرة وقفا على الأدب العربى شعره ونثره على سواء ، بل أن قصتها معروفة تتكرر فى الآداب العالمية ...

يقول ( رجاء النقاش ) :

فلا بأس على الأدب العربى ان ترك فيه قضية من هذا النوع ، لأنها قضية عالمية لم يخل منها أدب من الآداب ، ومازال النقد الغربى يبحث عن حقيقة مسرحيات ( شكسبير ) ، وهل ( شكسبير ) هو كاتب هذه المسرحيات ، أو أنه كاتب فقط ، أو أنه كان قناعا لمارلو أو بيكون أو غيرهما من أدباء عصره ، تلك قضية يبحثها الباحثون ويختلفون حولها منذ القديم وحتى اليوم ، وهى مصدر خصب لدراسات نقدية عالمية فى الأساليب الفنية ، نحن فى أشد الحاجة اليها ، كما أننا لا ننسى القضية التى أثارها الدكتور ( طه حسين ) حول الشعر الجاهلى ، حيث اعتبر الدكتور ( طه ) هذا الشعر منتحلا ، أى منسوبا بالكذب الى أصحابه ، وذلك لأسباب مختلفة » (٢٤) .

---

(٢٤) ذاته ص ٣٤ .